

الفصل السابع (١)

غرب آسيا - قديم الأقاليم الهندو - أوربية

الشعوب الهندو - أوربية وتوزيعها

لقد رأينا كيف كانت الصحراء العربية موئلا لقدر كبير من السكان الرحل الذين ينتقلون بصفة مستمرة من المناطق العشبية على حافة الصحراء مهاجرين إلى المدن ، لبدأ حياة مستقرة . وكما يوجد أراض عشبية في الجنوب فإننا نجد أراض مماثلة لها في الشمال تمتد في نطاق واسع من الدانوب الأدنى وتتجه صوب الشرق على طول الشاطئ الشمالي للبحر الأسود ، مختزقة جنوب روسيا متوغلة في آسيا شمالا وشرقا حتى بحر الخزر (قزوين) .

وكانت هذه المناطق آهلة بسكان من البدو الرحل في العصور الغابرة ، وبين الحين والحين مدى آلاف من السنين ، كان ينحدر هؤلاء البدو الشماليون إلى أوروبا وغرب آسيا ويستقرون بهما ، تماما كما انحدر الساميون من الصحراء الجنوبية إلى منطقة الهلال الخصيب .

واندج بين هؤلاء البدو الشماليين منذ عصور موغلة في القدم عنصر من الجنس الأبيض يعرف باسم الهندو - أوربية . وأصبح هؤلاء الهندو - الأوربيون أجداد الشعوب الناهضة القوية التي تقطن أوروبا وأمريكا اليوم . ومن زمن قديم بدأ الناس في الهجرة متجهين في سبل متفرقة حتى استقر بهم المقام في منطقة واسعة تبدأ غربا من الحدود الشرقية للهند متجهة صوب الغرب ومختزقة كل أوروبا حتى المحيط الأطلسي ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالهندو - أوربيين ، بيد أن هذا النطاق الشمالي العظيم قد قوبل في الجنوب بنطاق مماثل من الشعوب السامية ، يمتد من بابل في الشرق مختزقا

١ - يقال لهذا الفصل ، في الأصل الانجليزي ، الفصل الثامن . أما الفصل السابع من الأصل الانجليزي ، فقد رأينا حذقه لاعتبارات خاصة (العرب)

فينيقيا والممالك اليهودية صوب الجنوب حتى قرطاجنة وبعض المدن السامية التي أسسها الفينيقيون في غرب البحر الأبيض المتوسط .

وسنرى ابتداء من الآن أن تاريخ العالم القديم ليس إلا تاريخاً للصراع الذي احتدم بين هذا النطاق السامي الجنوبي الذي جاء من المناطق العشبية الجنوبية ، وبين النطاق الهندي الأوربي الشمالي ، الذي قدم من المناطق العشبية الشمالية ليواجه الحضارة القديمة الممثلة في النطاق الشمالي ، وهكذا ، إذا نظرنا إلى الجدول في شكل ٥٢ نجد أن كلا الجنسين يواجه كل منهما الآخر عبر البحر الأبيض المتوسط ، وكأنهما جيشان عظيمان يقفان قبالة بعضهما على خط يمتد من غرب آسيا حتى المحيط الأطلسي وتمثل الحروب التي نشبت فيما بعد بين روما وقرطاجنة بعض العمليات على الجناح السامي الأيسر بينما يمثل انتصار الفرس على الخلدوكيين حدثاً مشابهاً على الجناح السامي الأيمن .

انتهى هذا الصراع الطويل بانتصار الهنود — أوريين انتصاراً مبنياً وتم لهم التغلب على قلب الجيش وجناحيه عندما أصبح الإغريق والرومان السيادة المطلقة على عالم البحر الأبيض المتوسط بأسره . وتلا هذا النصر صراع طويل آخر نشب بين أعضاء النطاق الشمالي أنفسهم في سبيل الوصول إلى مركز الصدارة فيه .

وأخذت السيادة في النطاق الشمالي تنتقل من طرفه الشرقي إلى طرفه الغربي مبتدئة بالفرس ، ثم الإغريق ، وأخيراً الرومان الذين بسطوا سلطانهم على حوض البحر الأبيض المتوسط والعالم الشرقي ،

ولكن دعنا الآن نعود ثانية إلى ذلك الوقت الذي سبق هجرة الشعب الهنود — أوربي عن وطنه الأصلي في المناطق العشبية فنرى أن الدراسات الحديثة لم تقطع برأى في هذا الموضوع بتحديد المنطقة التي كان يقطنها هذا الشعب أول الأمر . ويتجه الرأي الآن على أن موطن هذا الشعب كان في منطقة المراعي العظيمة

الواقعة على الشواطئ الشرقية ، والشرقية الشمالية لبحر قزوين ، وربما عاش هناك الأجداد الأولون الذين انحدرت منهم كل الشعوب الهندو — أوربية فيما بعد ، وكانوا يتكلمون بلغة واحدة عندما كانوا لا يزالون شعبا واحدا .

وكانوا يجوبون هذه المناطق بحرية مطلقة باحثين عن المراعى الخصبة لقطعانهم بحكم أنفسهم إلى قبائل متعددة ، إذ كانوا يملكون أنواعا من حيوانات مستأنسة تشمل الماشية والأغنام . واحتل الجواد مكان الصدارة بين حيواناتهم المستأنسة ، فلم يستخدم الهندو — أوريون الخيل في الركوب فحسب ، بل استخدموها أيضا في جر عرباتهم ذات العجلات ، واستأنسوا الثور وكان عونا كبيرا لهم في جر المحراث لأن بعض هذه القبائل ركن إلى حياة مستقرة وقام بزراعة الحبوب وبخاصة الشعير . ولما كان هؤلاء القوم يجهلون الكتابة ، فلم تقم لهم إلا حكومة ونظام إدارى بسيط ، وربما بدأوا في استخدام النحاس ، في الفترة التي شرعوا فيها يهاجرون ويرحلون ، وأخذت قبائل هذا الشعب تجوب تلك المناطق مستبعدة عن بعضها البعض وتوغلت في تجوالاتها حتى فقدت الاتصال فيما بينها ، وترتب على ذلك اتساع شقة الخلاف بين الألسن واللهجات وتباينت التقاليد واختلفت العادات ، واصطبغت كل منها بصبغة محلية خاصة . وكان في استطاعة هذه الجماعات الهندو — أوربية المتباينة أن تتفاهم في بادئ الامر مع بعضها البعض عند التقائها ، فلما زادت شقة الخلاف بين اللهجات تدريجياً ، جاء اليوم الذى حدث فيه أنه إذا التقت تلك القبائل المشتتة لم تستطع التفاهم مع بعضها ، وفي النهاية فقدت هذه القبائل كل معرفة بأصلها أو بمن كانوا يتصلون بهم في القرابة ، إذ أن معرفة أصل هؤلاء الشعوب وصلتهم بغيرهم أمر لم يكتشف إلا منذ زمن قريب . وكانت النتيجة النهائية لذلك فيما يتعلق باللغة هي ما نراه الآن في لغات أوربا الحديثة . وفي امكاننا أن نتبع أكثر من لفظة واحدة

مشتركة من شعب إلى شعب مبتدئين بانجلترا غرباً ومتجهين صوب الشرق عبر أوروبا حتى شمال الهند كما نرى في هذا الجدول .

الغرب			الشرق		
اللاتينية	اللاتينية	اللاتينية	اللاتينية	الفارسية القديمة وإفغانستية	الهند الشرقية السنسكريتية
brother	brüder	frâter	phrâtêr	brâtar	bhrâtar
mother	mutter	mâter	mêtêr	mâtar	mâtar
father	vater	puter	pâtêr	pîtar	pîtar

أما في الغرب فإن أقدم جماعة معروفة لنا هي الجماعات التي وفدت من الاراضي العشبية الشمالية ودخلت آسيا الصغرى قرابة عام ٢٥٠٠ ق.م. وهؤلاء الغزاة الذين أسسوا الامبراطورية الحيثية . واندفعت جماعة أخرى نحو الجنوب والجنوب الغربي واستطاعت أن تخضع السكان الذين كانوا يقطنون المنحني الغربي لنهر الفرات ، حيث أصبحوا الطبقة الحاكمة لأمة جديدة تدعى أمة الميثاني التي سبق لنا الإشارة إليها ، وإذا بعدنا أكثر من هذا نحو الغرب نجد أن أكثر القبائل الهندو - أوربية التي سبقت غيرها في الهجرة نحو الغرب عبرت الدانوب وتوغلت في شبه جزيرة البلقان حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. ولا شك في أن بعض هؤلاء كانوا قد استقروا بإيطاليا في ذلك العهد . وكانت هذه القبائل الغربية فرعاً من الفروع المختلطة لأجداد الأغريق والرومان ، أو على الأقل كانوا أول من أدخل أقدم اللهجات اليونانية والرومانية (اللاتينية) إلى بلاد الأغريق وإيطاليا . وكان لهؤلاء الناس أثر كبير وخاصة بعد قيامهم بحملاتهم التي شنوها لإخضاع منطقة البحر الأبيض المتوسط . ولكن لندع هؤلاء وشأنهم الآن ولنتابع سرد قصة توغل هؤلاء الهندو - أوربيين أولاً في آسيا الصغرى (الأناضول) ثم في تقدمهم نحو الطرف الشرقي لللال الخصب .

الحضارات

عندما ينظر الإنسان إلى منطقة الجبال المرتفعة في غرب آسيا ، يحس بأن خلف هذا الستار المنيع من الجبال بل وبينها نفسها ، حدثت هجرات وحركات إنسانية هامة . وهذا أمر حقيقى فقد كانت هذه المنطقة مسرحا لحوادث هامة مدى وقت طويل ، ونستحدث الآن عن دورها الذى قامت به .

تشمل هذه المنطقة المرتفعة نطاقا شاسعا من الأراضى يمتد من البحر الإيجه غربا متجها صوب الشرق محاذياً للجانب الشمالى للهِلال الخصيب ثم يتوغل شرقا بين بحر قزوين والخليج الفارسى ، حتى الهضبة الإيرانية في الشرق . وتكفيينا نظرة سريعة على خرائط هذه المنطقة لترينا أن هذه المنطقة كانت تشمل من الغرب إلى الشرق الأناضول (أو آسيا الصغرى الحثية) وأرمينيا وميديا وإيران وفي هذه المنطقة الشاسعة تقدمت الشعوب النيوليتية حتى وصلت إلى حضارة عصر البرونز ، وكانت عناصر حضارتها متشابهة وتتصل ببعضها البعض . فإن بعض الأواني الفخارية الجميلة التى عثر عليها حديثاً في إيران تشبه شها تاما مثيلاتها من الأواني الفخارية التى اكتشفت في الأناضول أى في الطرف الآخر من المنطقة .

وليس في مقدورنا أن نجد لهذه الحضارة المتوغلة في الإتساع خاصية تعرف بها ، بيد أنه في استطاعتنا أن نطلق عليها إسما جغرافيا ، وأن نسميها « حضارة المنطقة المرتفعة » ، لأن الاعتقاد السائد هو أن هذه الحضارة نشأت في الأصل في الهضبة الإيرانية ، ولقد اكتشفت كميات من أوانها الفخارية ومصنوعاتها البرونزية في غرب إيران وفي ميديا ، وتتصل بهذه الحضارة حضارة أخرى أعرق منها في القدم وهي حضارة بلاد عيلام في أول عصورها . أما فيما يتعلق بالشعوب التى نمت بينها حضارة الأرض المرتفعة ، وأصل هذه الشعوب ، فليس لدينا عنها من المعلومات

إلا النذر اليسير ، ولا شك في أنها لم تكن جميعا من أصل واحد . ومن الجائز جدا أنهم لم يكونوا من الهندو أوريين في بادىء الأمر . وقد لعبت الشعوب التى كانت تقطن الأناضول دورا هاما في نمو حضارة الأرض المرتفعة ، وتلك هى الشعوب الحيثية التى كانت تستوطن آسيا الصغرى بسبب ما كان في جبالهم من معادن .

كان الجزء الأكبر من آسيا الصغرى أو الأناضول ^(١) تحت سيادة الحيثيين ، وهى شبه جزيرة شاسعة تتراوح بين ستمائة وسبعائة ميل في الطول ، وبين ثلاثة وأربعمائة ميل في العرض . أنها تقرب من ولاية تكساس . وفي وسطها منطقة مرتفعة مستوية السطح تكاد تشبه الصحراء . وحول هذه المنطقة المرتفعة في الوسط الشبيهة بالهضبة ، نرى سلسلة من الجبال تكتنف الجزء الأكبر منها وتصل إلى البحر ، وعلى جانبي سلاسل الجبال توجد وديان وسهول خصبة تدر محاصيل طائلة . وتغطي الغابات منحدرات الجبال وخاصة تلك التى تواجه البحر الأسود . أما الشواطئ الشمالية لآسيا الصغرى شرقى نهر الهاليس Halys فإنها مرتفعات جبلية غنية بالمعادن وخاصة الحديد . ولهذا كان الحيثيون أقدم الشعوب التى نشرت استعمال الحديد عندما أخذ يحل مكان البرونز في بلاد البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى .

ولعله من الأصوب أن نطلق على سكان الطرف الغربى لمنطقة الأرض المرتفعة ، في قارة آسيا في العصر الذى سبق غزوات الهندو - أوريين ، اسم الأناضوليين القدماء ، إذ لا شك في أن هؤلاء القوم كانوا يقطنون هذه المنطقة

١ - الأناضوليا (أو الأناضول) كلمة تعريبية قرأنا الكلمة اللاتينية Oriens أى الشرق ولكن تدلناها قد حدد معناها لأنها تستعمل للدلالة فقط على آسيا الصغرى حتى القرات الأعلى من ناحية الشرق . وقد أثبتت آخر الأبحاث الأثرية أن الشعوب الأولى التى سكنت في الأناضول ليس هم أجداد الحيثيين المعروفين في التاريخ . إذ أن الحيثيين وفدوا بعد ذلك . ولهذا يمكننا أن نسمي السكان الأوائل الأناضوليين القدماء ، وهو اصطلاح لا يدل في الواقع على أصلهم أو جنسيتهم .

عندما بلغ تقدمهم الإقتصادي حد المرحلة النيوليتية فقط . وكان من عادة هؤلاء الأناضوليين القدماء أن يهاجروا ، فاتجه بعضهم إلى أطراف آسيا الصغرى من الناحية الغربية ، وهاجروا منها إلى كريت ، ورحل بعضهم في بلاد اليونان نفسها وكان ذلك في العصر الذي سبق عصر معرفتهم للمعادن . ونحن نذكر كيف هاجر بعضهم من الطرف الشرقي لآسيا الصغرى إلى فلسطين في جماعات كبيرة فأثروا في سكانها وأصبحت معالم وجوههم وخاصة تلك الأنف المحدبة هي السائدة في منطقة فلسطين بأسرها .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن الأناضوليين القدماء . وقد يستلزم الأمر عشرات من السنين في التنقيب والبحث لجمع شتات الحقائق لمعرفة قدر كاف عن حياة هذا الشعب وتاريخه . وقد عثر على عمق ثمانين قدما تحت أحد الأكوام الختية المعروف باسم تل اليشار (Alishar) على منزل من العصر النيوليتي فعرفنا منه الشيء اليسير عن بعض ما يتصل بحياتهم قبيل فجر عصر المعادن ، .

أما الهندو - أوروبيون فإنهم جاءوا على الأرجح من الشمال ومن الشرق من ناحية جبال القوقاز حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م وكان هذا أول ظهورهم على صفحات التاريخ ، وقد دلت الاكتشافات الحديثة على أن هؤلاء الهندو - أوروبيين الذين أتوا إلى الأناضول هم الذين نعرفهم باسم الحيثيين الذين كانوا في طليعة التحركات الهندو أوربية في غرب آسيا التي انتهت أخيرا باحتلال الهلال الخصيب والسيطرة على الشرق الأدنى بأسره على أيدي الميديين والفرس .

وأدخل الهندو - أوروبيون الحصان المستأنس إلى آسيا الصغرى ومن ثم إلى جميع بلاد الهلال الخصيب ، ولم يتسبب عن هذا الغزو انقراض الأناضوليين القدماء بل خضوعهم لحكم الغزاة الجدد الذين أصبحوا الطبقة الحاكمة كما حدث في بلاد ميتاني . أما فيما يتعلق باللغة فقد نشأت لغة مختلطة ، وتضمنت هذه اللغة المختلطة



شكل : ٥٣ - حيثى قديم وسليله أرمنى حديث

الى اليسار رأس حيثى قديم كما حفرها مثال مصرى على حائط معبد فى طيبة بمصر منذ ثلاثة آلاف سنة . وهى تشبه الى حد كبير وجوه الارمن الذين مازالوا يعيشون فى القطر الحيثى كما نرى فى الرسم الذى على اليمين

الجديدة ألفاظا أناضولية قديمة إلى جانب الألفاظ الهندو - أوربية . كما اختلطت الاصطلاحات النحوية، وظلت هذه اللغة المختلطة مدى ألف سنة إحدى اللغات الهامة فى غرب آسيا . وسنسمى هذه اللغة المختلطة ، اللغة الحيثية ، لنميزها عن لغة عصر ما قبل مجيء الهندو - أوريين . وكان الحيثيون عند غزوهم للأناضول قوما لا مدنية لهم ، ولم تنشأ الحضارة الحيثية إلا بتأثير من حضارات الهلال الخصيب . فنحن نذكر كيف كانت القوافل البابلية تسير محملة بالتجارة منذ عصر بعيد إلى آسيا الصغرى ، ونذكر أيضا كيف استقر بعض التجار الآشوريين هناك . وكان وجود هؤلاء التجار سببا فى تعلم الحيثيين أساليب المعاملات التجارية ، ثم تعلموا بعد ذلك قراءة الرقم التى كان يسطر عليها التجار قوائم البضائع وأصنافها والمراسلات التجارية التى كان يبعث بها التجار الآشوريون مع تلك السلع . وقد عثر على كميات هائلة من هذه الرقم فى المدن الحيثية ، كما عثر فى الحفائر منذ وقت غير بعيد على كثير من الرقم احتوت على معاجم تحوى صفحاتها ثلاثة أعمدة من الكلمات : الأول سومرى ، والثانى آشورى بابل ، والثالث حيثى . وهكذا تعلم الحيثيون كتابة الكلمات الحيثية بالكتابة المسمارية . وأصبحت الرقم شائعة الإستعمال بين الحيثيين ، ومن

المرجح أن استعمال هذه الرقم ^(١) قد وصل إلى كريت عن طريق هؤلاء الحيثيين ، وتقدم هؤلاء الحيثيون تقدماً كبيراً في حضارتهم بعد أن تعلموا الكتابة ، ولم يأت عام ٢٠٠٠ ق . م . وإلا وأصبحوا شعباً على جانب كبير من الحضارة والرقى . وصارت لهم القدرة الكاملة على منافسة الشعوب العظيمة في الشرق الأدنى . ونهضوا مرتين لينافسوا مصر وآشور ، وسنطلق على أولى هاتين الفترتين العظيمتين الامبراطورية الحيثية الاولى (من حوالى عام ١٩٠٠ إلى ١٦٥٠ ق . م) وعلى الثانية الامبراطورية الحيثية الثانية (من حوالى عام ١٤٠٠ إلى عام ١٢٠٠ ق . م)

وأقدم ملك حيثي وصل إلينا اسمه هو « أنيتا » (Anitta) ، الذى قام فى مدينة كوسار Kussar فى المنطقة الشرقية لآسيا الصغرى . ولعل ذلك كان عام ٢٠٠٠ ق . م ولا نعرف على وجه التحديد المنطقة التى قامت فيها تلك المدينة . ومن الواضح الجلى أن الحيثيين لم يكونوا إذ ذاك أمة واحدة ، بل كونوا عدة ممالك مختلفة كانت مثل الممالك الأفريقية فى صراع دائم مع بعضها البعض . ولكن القيادة العليا لهذه الممالك آلت أخيراً إلى مملكة الخيتي ^(٢) Hatti التى كانت تقع داخل المنحنى الكبير لنهر الهاليس فى وسط آسيا الصغرى وعاصمتها تعرف بحاتوساس (Hattusas) . وقد تمكن ملوك ختي Hatti من أن يخضعوا الممالك المجاورة وكونوا بذلك أمبراطورية صغيرة وفى أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد تولى الملك فى حاتوساس ملك قدير هو الملك « مورسيل » (Mursil) ، أول الملوك الذين يحملون هذا الاسم . وفى الأيام التى أخذ فيها خلفاء حمورابي Hammurabi يضعفون كان مورسيل الأول هو الذى تقدم

١ - حوت الرقم الحيثية كثيراً من علامات الكلمات البابلية مما مكن العالم المشكوكسليفاي « بروفيس هروتزنى » Redfich Hrozny . أثناء الحرب العالمية الأولى من حل رموز اللغة الحيثية المكتوبة بالطريقة المسمارية وزادت معلوماتنا عن الحيثيين بعد ذلك زيادة مطردة . وقد أثبت العالم الألماني إميل فورر Emil Forrer أن الرقم الذى اكتشف فى عاصمة الحيثيين تحوى أمثلة من سبع لغات إلى جانب اللغة الحيثية

٢ - « الخيتي » هى أصل كلمة الخيتي والحيثيين التى وردت فى التوراة

مع نهر الفرات واستولى على بابل وأطاح بآخر فرد من أسرة هامورابي . بيد أن خلفاء مورسيل لم يكونوا مثله في المقدرة فلم تلبث الأمبراطورية الحيثية الأولى أن سقطت قبل أن تطصم بمصر .

وقامت الأمبراطورية الحيثية الثانية قرابة عام ١٤٠٠ ق . م . واستمرت لمدة قرنين من الزمان صاحبة السلطان والنفوذ في آسيا الغربية . وكان مؤسس هذه الأمبراطورية هو سبيلوليوما ، Suppilulyma أ كفاً قائد عرفته آسيا الغربية منذ حملات تحتمس الثالث ، تلك الحملات التي بدأت في فترة تقل عن القرن قبل بدء حملات الحيثيين الهائلة . فلما تقدم سبيلوليوما في سوريا وعلى شواطئ الفرات بعد عام ١٤٠٠ ق . م أخذ يقضى على نتائج الانتصارات التي أحرزها سلفه المصري في تلك البلاد . ولم يكن هناك تحوُّم آخر ليرد عدوان هذا القائد الحيثي القوي . بل كانت هناك ثورة الملك أخناتون التي أضعفت من روح المصريين الحربية وأسلبتهم للباس فلم يكن في مقدورهم عمل شيء إلا أن يرقبوا تقدم الحيثيين في سوريا واخضاعهم لها ، ثم ضمها إلى الأمبراطورية الحيثية . وعبر سبيلوليوما الفرات بعد ذلك ودحر قوات الميتاني ، وهكذا أصبح الفاتح الحيثي مسيطراً على جزء كبير من آسيا الغربية . وهناك رقيم له أهمية خاصة عثر عليه مع الرقم التي اكتشفت في العاصمة الحيثية «حاتوساس» وهو رسالة جديرة بالاعتبار كتبت بالمسمارية موجهة إلى الأمبراطور الحيثي . من إحدى ملكات مصر^(١) وهي إما كانت أرملة إخناتون أو ابنته الثالثة التي تزوجت بثوت عنخ آمون ،

وهذه الرسالة دليل قاطع على سطوة وقوة الفاتحين الحيثيين لأن الملكة المصرية تقول له في رسالتها ، أن ليس لها ولد ليخلف أباه المتوفى على العرش وترجو الحاكم

١ - نتيجة أكثر الباحثين في السنوات الأخيرة إلى الإتيان بأن تلك الملكة هي نفرتيتي . (انظر أعمال ذلك بعد موت إخناتون عندما رأت بوادر انتصار أعدائه وانهارت حركة المصريين) . (العرب)

الحيثي أن يرسل إليها أحد أبنائه زوجها لها ومملكا على مصر .

ولو تم هذا الزواج لأصبحت للأسرة الملكية الحيثية حينئذ السلطة العليا على الأمبراطوريتين المصرية والحيثية ، ولأصبحت هاتان الأمبراطوريتان مجتمعتين أعظم أمبراطورية أعرفها التاريخ . بيد أن الشك ساور الأمبراطور الحيثي في أمر هذا العرض الغريب الذي تقدمت به الملكة المصرية . وأراد أن يستوثق من الأمر قبل أن يبعث بابنه إلى مصر . ولكن عندما استقر رأيه على إرسال أحد أبنائه كان الوقت متأخراً جداً وفشل كل شيء . فعندما كان الأمير الحيثي الشاب في طريقه إلى مصر كان أعداء أسرة اخناتون الأقوياء قد أطاحوا بالملكة الأرملة ، وألقوا القبض عليه وقتلوه . وهكذا خسر سيلوليوما فرصة استيلائه على مصر دون حرب أو بذل أى مجهود .

وكان لديه أبناء آخرون . فتوجههم ملوكاً على أهم البلاد في سوريا وبهذا جعل الطرف الشمالي للأمبراطورية المصرية جزءاً من الأمبراطورية الحيثية ، وفي الجنوب امتدت أمبراطوريته حتى فلسطين ، التي ظلت تحت حكم مصر . أما في الغرب فإنه عبر الفرات وامتدت حدوده حتى شملت جزءاً عظيماً من دولة الميتاني ، كما امتدت حدوده الشرقية في وقت من الأوقات حتى وصلت إلى آشور . أما في الشمال والغرب فقد شملت الأمبراطورية الحيثية الثانية معظم آسيا الصغرى ، وأحست مدينة طروادة التجارية التي كانت تتمتع بقسط كبير من السطوة بضغط قوة الحيثيين ، إذ لم تكن قد أصبحت تحت السيادة الحيثية ودانت بالولاء للأمبراطورها .

وهكذا باتت الأمبراطوريتان المصرية والحيثية نديتين متنافستين في سبيل الوصول إلى مركز الصدارة في العالم ، وكانت منافسة عنيفة قوية بينهم استلزمت حرباً دامت أكثر من ربع قرن من الزمان بين أحفاد سيلوليوما وبين الفراعنة سيثي الأول ورمسيس الثاني . وعندما كانت الحرب محتدمة بين الفريقين وخاصة بعد عام

١٣٠٠ ق . م ، بدأت دولة آشور في نهضتها فسبب ذلك مضايقة للحيثيين . وأخذوا يعقدون المعاهدات بينهم وبين الملوك المواليين لهم في سوريا ، ينص فيها هؤلاء الملوك على أنهم يعتبرون الآشوريين أعداء لهم يعاملونهم معاملة الأعداء ، ومن بين الرقم التي اكتشفت في حاتوساس توجد نسخة من رسالة جديرة بالاهتمام بحث فيها الآشوريون الملك الشاب في بابل ليهاجم آشور من الخلف .

وعندما نشبت الخلافات بين الحيثيين أنفسهم عقد حفيد سيدو ليوما حاتوسيل Haltusil معاهدة صلح مع رمسيس الثاني وهكذا انتهى الصراع بين هاتين القوتين وقامت علاقات وثيقة بين الاسرتين المالكتين ، وتبادل ملكات مصر وملكات خيتا رسائل التهنة على المعاهدة السلمية الجديدة ، وهذه الرسائل مكتوبة على رقم ويرجع تاريخها إلى حوالي عام ١٢٧٠ ق . م ، وعثر عليها الباحثون بين السجلات والمدونات الملكية التي استخرجت من خرائب العاصمة حاتوساس (بوغاز كوى) . وبعث الامبراطور الحيثي بعد ذلك بابنته إلى مصر لتصبح زوجا لرمسيس الثاني . ورسم نحاتو رمسيس مناظر تمثل وصول العروس الحيثية على المعابد المصرية . بل إن بعض هذه المناظر رسم على أحد معابد هذا الملك (معبد أبو سمبل) على مقربة من الشلال الثاني .

لقد وصلت حضارة الامبراطورية الحيثية الثانية إلى مستوى عال من الرقي ، وكان لها أثر كبير فيما حولها ولنتحدث عن أهم ما حققته .

نشأت الدولة الحيثية عن مجموعة كبيرة من الدويلات الضعيفة التي أخضعها دويلة (ختي) ، وكان على كل دويلة من هذه الدويلات أن تقدم لجيش الامبراطور بعض المشاة وراكبي العربات فتكونت قوة الامبراطور الحربية من هذا الجيش المختلط بالإضافة إلى الجنود الذين يجمعهم هو نفسه من مملكته . أما الحكومة فإنها كانت تطبق مجموعة حكيمة من القوانين وكان الملك نفسه مقيداً بنصوصها ، وبما

يدل على تقدم الحضارة الحيثية أنه بعد توقيع معاهدة الصلح مع مصر رأى أحد ملوك الحيثيين (ربما كان الملك حاتوسل) أن يدخل تعديلات جديدة على هذه القوانين جعلتها أكثر رحمة وإنسانية عما كانت عليه من قبل ، بقي من هذه اللائحة حوالى مائتى بند وهى جزء غير قليل من هذا القانون وهى مكتوبة على رقم وكثيراً ما يشير فيها الملك إلى العقوبات القديمة التى كانت أكثر عنفاً وشدة ، وما أدخله عليها فصارت أكثر رحمة وأخف وطأة . كانت عقوبة سرقة رأس من الغنم تبلغ غرامة قدرها ثلاثون رأساً ، أما الآن طبقاً للقانون الجديد فقد خفضت هذه الغرامة إلى خمسة عشر رأساً فقط . ولم تطبق عقوبة الإعدام فى جرائم القتل ولا شك أن هذا القانون الحيثى كان أكثر عطفاً ورحمة من القانون الآشورى . وكان أعظم شفقة وإنسانية من قوانين بابل أو مصر . وهذا الاحترام الذى أظهره الملوك الحيثيون نحو القانون أمر جدير بالإعجاب ، وبما هو جدير بالذكر أيضاً أن سيديليوما قد اعترف فى إحدى كتاباته بأن غزوه للأمبراطورية المصرية فى سوريا كان غزواً غير مشروع ، وأن الوباء الذى انتشر بين شعبه بعد ذلك كان جزاء عدلا من الآلهة عما أتاه .

ولا ريب فى أن هذه العقلية المستنيرة التى قادت خطى الملوك الحيثيين كان لها أثر كبير فى التقدم الملحوظ الذى حققه الحيثيون فى ميادين أخرى غير ميادين السياسة فقد بنى المعماريون الحيثيون أقدم مباني هامة من الحجر فى آسيا . كما أن مدينة حاتوساس ذات الأسوار القوية المنيعة كانت فى الواقع أول مدينة كبيرة وجدت فى تلك القارة إذ فاقت مدينة بابل التى كانت معاصرة لها فى الاتساع ، أما مدينة نينوى التى أقامها الآباطرة الآشوريون فقد كان أمامها قرابة ستة قرون أوسبعة حتى تظهر فى الوجود ،

وخير ما تظهر فيه عبقرية المهندسين الحيثيين هو ذلك الطراز المعمارى الجديد الذى أدخلوه على واجهة قصر الملك ، وكانت هذه تتكون من إيوان مسقوف فى

الوسط . يحمل سقفه عمودان ، وعلى كل جانب من الايران برج مربع . وأطلقوا على هذا المبنى اسم « المنزل ذو البرجين » ، وقد اقتبس الملوك الآشوريون هذا الديوان وأدخلوه في عمارة قصورهم . ثم وصل أخيراً إلى الفرس .

وعرف المهندسون الحيثيون أهمية النحت في تزيين مبانيهم . فأقاموا على جانبي المدخل الرئيسي في قصر الملك تماثيل من الحجر لأسدين حارسين على جانب كبير من الدقة والجمال . وفكرة تماثيل أوصور الحيوانات الحارسة مأخوذة عن المصريين الذين كانوا يصنعون تماثيل أبي الهول الذي اقتبسه الحيثيون عن المصريين أيضاً .

وزينوا الجدران أيضاً بعمل أفريز سفلي للحائط يتكون من قطع كبيرة مستوية من الحجر تنحت فيها صور بارزة . نقل الحيثيون هذه العادة إلى آشور . كما نقل الحيثيون أنفسهم رموزاً ذات قيم فنية ودينية عن مصر وبابل . فنجد مثلاً بين الصور البارزة الحيثية قرص الشمس المجنح المصري كما نجد رمز البابليين القديم وهو النسر الذي يفرد جناحيه ورأسه على هيئة رأس أسد وفي بعض الأحيان له رأسان أما قرص الشمس فقد انتقل شرقاً إلى الآشوريين والفرس ، وأما النسر فقد عبر البحر الأبيض واتجه صوب الغرب إلى أوروبا فيما بعد ومنها إلى الولايات المتحدة حيث أصبح النسر الأمريكي .

وتعتبر رقم الأباطرة الحيثيين أقدم قصص تاريخية تميزت بأسلوب أدبي ومكتوبة نثراً . فقد كان الكتاب الحيثيون يملون الأدب عظيم اهتمامهم ، وأدى بهم هذا الشغف إلى حب استنساخ المؤلفات البابلية القديمة وإقبالهم عليها . لقد كانت قصة البطل البابلي جاجمش (Gilgamesh) ذائعة معروفة في جميع أنحاء آسيا الصغرى . وإلى جانب المؤلفات الدينية كان هناك أيضاً بعض أبحاث خاصة مثل ذلك البحث في تربية الخيل الذي اقتبسه الحيثيون عن الميتانيين . وعلى عكس الكتاب الذين ظهروا في الحضارات العظيمة الأخرى حرص الكتاب الحيثيون

على أن يعرفهم الناس بأنهم مؤلفون فأضافوا أسماءهم إلى مؤلفاتهم . فكانوا بذلك أقدم المؤلفين الذين شعروا بكيانهم كما يفعل الآن الكتاب المحدثون .



شكل : ٥٤ - أمير حيثى يصطاد أيلًا

يقف الأمير الحيثى فى العربة والى جانبه سائقها ، ويرمى الأمير بسهمه ذكر الأيل بينما يجرى كلب الصيد الى جانب الجوادين . والمنظر منقوش على حجر وهو بوجه عام مثل لباس به للفن الحيثى . وفى أعلى الصورة كتابة باللغة الهيروغليفية الحيثية

وعندما بدأ الأباطرة الحيثيون فى تشييد المباني الحجرية شعروا بحاجتهم الماسة إلى خلق طراز للكتابة يلائم الآثار الضخمة الهائلة لتزيين المباني بالكتابات التاريخية كما فعل المصريون ، ولهذا ابتدعوا طريقة فى الكتابة أساسها استعمال الصور كعلامات ، ولا زالت بعض هذه الكتابات التاريخية التى كتبوها بهذه العلامات الهيروغليفية الجديدة نراها على واجهة الصخور وعلى الجدران القائمة يشاهدها المسافرون فى منطقة متسعة من آسيا الصغرى من البحر الأبيض إلى الفرات ، ورغم أن هذه الكتابات الهيروغليفية التى كتبها الحيثيون لم تحل حتى الآن

حلاً تاماً فإن الباحثين تقدموا في ذلك تقدماً يستحق الإعجاب (١)

وتوحي إلينا المدونات الحيثية باحتمال وجود عناصر مصرية وبابلية في الديانة الحيثية . وعبد الحيثيون مجموعتين عظيمتين من الآلهة : آلهة الأرض وآلهة السماء فألى جانب « الأرض الأم » كان لديهم أيضاً إله الشمس التي آمن بها الحيثيون إيماناً صادقاً . وكان هذا الإله الأخير على جانب كبير من الأهمية جعلت الأمبراطور الحيثي يسمى نفسه « الشمس » .



شكل : ٥٥ — حلقة بارزة من الفضة عليها نقش مسمارى ونص هيروغليفي حيثي .

كتب صانع هذا الطبق النص الآتي حول حافته باللغة الحيثية مكتوباً بالمسمارية «تاركونديموس ملك دولة مرا» . وعلى جانبي رسم الملك نرى نقشين بالعلامات الهيروغليفية الحيثية . ويرى الدكتور اجنيس جلب Dr. Ignace Gelb من علماء المعهد الشرقي أن لهذا النقش أهمية عظيمة لأن ترجمته النص الهيروغليفي هي : «تاركونديموس ملك دولة مرا» وبعبارة أخرى فإن نقوش هذه الحلقة الفضية المستديرة ليست إلا نصاً حيثياً واحداً مكتوباً بلغتين أي أنه مماثل لحجر رشيد في مصر ونقش داريوس في بهستون . فإذا حددنا قراءة بعض العلامات الهيروغليفية فإنه يصبح من الميسور الانتفاع والاستعانة بها في قراءة النصوص الأخرى وبمثل هذه الطريقة البطيئة المضنية يجتهد العلماء في تحديد نطق أو معنى بضع علامات قليلة إلى أن يأتي اليوم الذي يتمكنون فيه من حل جميع ألغاز الكتابة الحيثية الهيروغليفية

١ — يختلف الباحثون في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه الكتابة العنثية الهيروغليفية ولو أن غالبيتهم يميلون إلى الاعتقاد بأنها لم تظهر حتى نهاية الامبراطورية العنثية الثانية . وعلى أية حال هناك ما يمكن أن يثبت أن ظهورها سبق قيام الامبراطورية الثانية .

ووصلت الحضارة الحيثية إلى ذروة ازدهارها في الوقت الذي كانت فيه
الامبراطورية المصرية في أوج عظمتها ، وفي الفترة نفسها التي كانت فيها « كنوسوس
Knossus » في جزيرة كريت في عصرها المجيد . ويوم كانت طروادة في غرب
آسيا الصغرى قد بنت (مدينتها السادسة) العظيمة . ولما كانت الحضارة الحيثية تقع
بين الحضارتين العظيمتين حضارة جنوب أوروبا وحضارة الشرق الأدنى ، فقد
كانت همزة الوصل بين الطرفين وكان أثرها على الشعوب الإلجية تأثيراً مستمراً .
فقد تلقى الأغريق عن العالم الحيثي مبادئ الفن . وأصول المعار كما اقتبسوا منه
بعض العقائد الدينية .

وهناك أمر آخر له دلالة الكبرى وهو أن الحيثيين ، كانوا أصحاب الفضل في
نشر استعمال الحديد في جميع أنحاء الشرق الأدنى . وينجب علينا ألا نخطئ الفهم
ونعتقد أن مهمة الحيثيين اقتصرَت على نقل الحضارات بين الأمم فإننا رأينا كيف
ساهم الحيثيون بنصيب وافر في حضارات الشرق الأدنى القديمة . وقدموا له كثيراً
من المبتكرات الجديدة بالاعتبار . واقتبس الآشوريون كثيراً منها ثم انتقل منهم إلى
الفرس ، وهم شعب من الجنس الهندو أوروبي الذي سكن في غرب آسيا . ولنبدأ
حديثنا عنهم الآن .

الشعوب الآرية والنبي الإيراني

« زرادشت Zoroaster »

أجمع الباحثون على أن القبائل الشرقية من النطاق الهندو - أوربي كانت ترعى قطعانها في منطقة المراعى العظيمة في شرق بحر قزوين قرابة عام ٢٠٠٠ ق . م بعد أن تركت موطنها الأصلي ، وفي هذا الوطن الجديد كونوا شعبا يطلق عليه بحق اسم الشعب الآرى (١) ، وجعلوا من هذه المنطقة وطنا لهم لفترة من الزمن .

ولم يعرف الآريون الكتابة ، ولم يتركوا آثارا لهم . ورغم هذا فإن معتقدات أحفادهم ترينا أن القبائل الآرية كان لها في ذلك الحين ديانة رفيعة المستوى لخصت كل السلوك الانساني في أنه : أفكار طيبة ، أعمال طيبة ، ولعبت النار دورا هاما في هذه الديانة ، وقد كان لديهم جماعة من السكينة أطلقوا عليها اسم « مشعل النار » .

وعندما تشتت شمل الآريين . ولعل ذلك كان حوالى عام ١٨٠٠ ق . م انقسموا إلى مجموعتين فاتجهت القبائل الشرقية نحو الجنوب الشرقى واستقرت آخر الأمر في الهند . وفي كتبهم المقدسة المسماة بالفيدا Vedas والتي كتبت باللغة السنسكريتية ، يتردد صدى أيام الوحدة الآرية ، كما احتوت هذه الكتب على كثير

١ - من المحتمل جدا أن الشعب الهندو - أوربي الاول لم يكن له اسم يطلق على جميع قبائله . ونطلق كلمة « آرى » فى بعض الاحيان تجاوزا على الشعب الاول هذا . ولكن ليس ليذا الاستعمال اساس من الصحة . فانه صفة آرى (التى جاءت عنها فيما بعد لفظة ايران ، وايراني) تدل على جماعة من القبائل ما هم فى الواقع الاجزاء من الشعب الاول . انفصل عن ذلك الشعب واستوطن المنطقة التى تقع شرق بحر قزوين مباشرة . ويجدر بنا أن نذكر عندما نسمع لفظة آرى يطلقها بعض الناص على الشعوب الاوربية التى من اصل هندو - أوربي أو يقول بعضهم أننا من سلالة آرية يجب أن نذكر أن هذا التعبير خطأ من الناحية التاريخية رغم كثرة استعماله . وذلك لأن الآريين ينتمون الى القبائل الشرقية من الشعب الهندو - أوربي الاول ، أما الاوربيون والامريكيون فينتمون الى القبائل الغربية من هذا الشعب ، أى أن الآريين هم أبناء عمومة الاوربيين لا أجدادهم .

من الاشارات إلى الوطن الآرى القديم شرقى بحر قزوين .
واحتفظت قبائل الجماعة الثانية بلفظة « آرى » ، فى كلمة إيران ولذا نسميهم الآن
إيرانيين . وهجر هؤلاء أيضا الوطن الآرى واتجهوا نحو الغرب والجنوب الغربى
خلال الجبال التى تمد الهلال الخصيب ، وكان حكام الميتانيين قبيلة من مجموعة تلك
القبائل الايرانية . وإذا توغلنا شرقا نجد جماعتين من الايرانيين^(١) على جانب كبير
من القوة . هما الميديون والفرس ، الذين قدر لهم أن يخضعوا الهلال الخصيب وأن
يؤسسوا آخر امبراطورية شرقية عظيمة فى غرب آسيا .

وقد رأينا قبل الآن كيف كانت الشعوب التى تقطن الجبال المحيطة بالطرف
الشرقى للهلال الخصيب خطرا دائما منذ أقدم العصور يهدد سلامة سكان بابل
وآشور ، ويذهب بطمأنينتهم . وكانت مملكتا عيلام ، وأورارتو Urarto بوجه
خاص عدوتين خطرتين لآشور مما حدا بالآباطرة الآشوريين الى شن غزوات
متوالية لنهب هذه البلاد حتى تمكنوا أخيرا من كسر شوكتها والقضاء عليها . ولعل
آشور ارتكبت خطأ جسيما بهذا العمل لأنه ربما أمكن لهذه البلاد بما كان لديها من
القوة ما يجعلها تصد تقدم الهنود - أوريين وأن تكونا دولة تحمى حدود الآشوريين
والكلدانيين .

ولما كانت الشعوب التى على الحدود قد أضعفتها غزوات الآشوريين فلم يلق
الميديون أى عناء أو مقاومة ، واستطاعوا حوالى عام ٧٠٠ ق . م تقريبا تأسيس
امبراطورية إيرانية قوية فى الجبال التى تقع شرقى نهر دجلة ، وأخيرا امتدت هذه
الامبراطورية من الخليج الفارسى حيث شملت بلاد فارس ، وتتجه صوب الشمال
الغربى مع سلسلة الجبال حتى منطقة البحر الأسود وبذلك أصبحت واجهة الجناح

١ - لقد أطلق اسمهم على الهضبة الايرانية العظيمة باسمها . تلك التى تمتد من جبال زاغروس فى
الغرب حتى نهر الهند شرقا . ولقد عرفت هذه المنطقة جميعها لدى الاغريق والرومان باسم أريانا Ariana
تلك التسمية (مثل إيران) المشتقة بالطبع من لفظة آرى

الشرقي للهندو - أوريين موازية إلى حد ما لنهر دجلة في هذا المكان ولكنهم واصلوا تقدمهم وامتد هذا الجناح إلى مسافات أبعد فيما بعد ، وأسس الميديون



شكل : ٥٦ - رسم ماون ، ييحتمل أن يكون لزرادشت

عشر على هذا الرسم الملون في معبد للاله « متراس » في دورا على الفرات وقد كشفت عن هذا المعبد بعثة مشتركة من جامعة ييل والاكاديمية الفرنسية للنفقوش والفنون الجميلة برئاسة الاستاذ كلارك هوبكنز Professor Clark Hopkins (منشور هنا بأذن من قاعة الفنون الجميلة بجامعة ييل)

مدينة إكباتانا Ecbatana وجعلوها عاصمة لهم. وتقع هذه المدينة في مواجهة الممر الذي يخترق جبال زجروس مؤديا إلى الهلال الخصيب مباشرة ، وإلى مدينة بابل رأسا . وبعد مرور قرن من الزمان ، توجس نبوخذ نصر وخلفاؤه في بابل خيفة من الميديين الأقوياء ، عائدین بأذهانهم دون شك إلى عام ٦١٢ ق . م . حين سارع

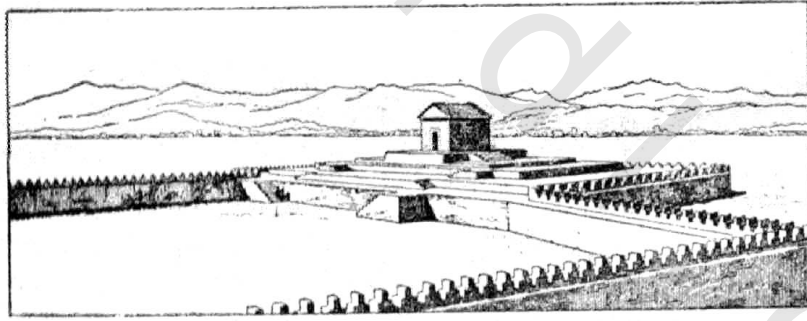
هؤلاء الميديون إلى الاتحاد مع غيرهم واشتركوا في مهاجمة نينوى وكان الكلدانيون على نهر الفرات يمثلون زعامة الدم السامى الذى قدم أهله من المراعى الجنوبية ، ولكن هذه الزعامة كان على وشك التخلي عن مكانها لزعامة الدم الهندو - أوربى القادم من المراعى الشمالية . ونحن اذ نشاهد الكلدانيين يفسحون الطريق أمام الميديين والفرس ، يجدر بنا أن نذكر أننا نشهد انقلاباً خطيراً بين الأجناس المختلفة وأن هؤلاء الايرانيين الذين على وشك السيطرة على الشرق كانوا من ابناء عمومة الأوربيين لأن كلاهما من نسل الرعاة الرحل أو الشعب الهندو - أوربى الأول ، الذى عاش يوماً ما فى المراعى النائية فى وسط آسيا ، منذ خمسة آلاف سنة مضت على وجه التقريب .

وكان لجميع هؤلاء الايرانيين ديانة جميلة آلت اليهم منذ العهود الآرية القديمة التى سبقت هجرتهم . وبعد جيل من سقوط نينوى - وربما كان ذلك قرابة عام ٥٧٠ ق . م - ولد نبى ميدي يدعى زرادشت^(١) وشرع هذا النبى فى تأمل حياة الناس بغية الوصول إلى ديانة جديدة تلائم حياتهم وتسد حاجتهم ، تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر ، هذا الصراع الذى كان يراه حوله أينما سار والذى رآه ممثلاً فى ديانة الشعب الميدي وفى عقائدهم وفى آلهتهم القديمة . وبدأ له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر ، واعتقد أن الخير ليس إلا كائناً إلهياً أطلق عليه اسم مازدا Mazda ، الذى كان اسماً لأحد الآلهة القديمة أو « أهورا مزدا » Ahurmazda ومعناها « رب الحكمة » الذى رأى فيه أنه هو « الله » ، وكان يحيط بأهورا مزدا جماعة من الأعوان يشبهون الملائكة وكان أعظمهم مكانة هو « النور » ويدعى « مثره » Mathra ، ويقف ضد أهورا

١ - كان هناك خلاف فى الراى فى تحديد وقت ظهور زرادشت وحين الكثيرون يوافقون على أنه عاش فى القرن السادس ق . م ، ولكن اتفقت آراء الباحثين أخيراً على أنه عاش فى القرن السادس ق . م .

مزدا وأعوانه جماعة شريرة ترأسها روح شريرة قوية أطلقوا عليها اسم «أهريمان» Ahriman وهو الذى أخذ اليهود ثم المسيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم «الشیطان» .

وهكذا نشأت عقيدة زردست من الصراع القائم فى الحياة عينها . ولذا أصبحت قوة هائلة فى هذه الحياة . وكانت هذه الديانة من أنبل الديانات التى ظهرت فى العالم . دعت هذه الديانة كل إنسان وأهابت به أن يختار أحد الطريقين - إما أن يملأ قلبه بالخير والنور أو ينغمس فى الشر والظلمة وسواء اتخذ الإنسان هذا السبيل أم ذاك ، فإنه سيلاقى جزاءه ويحاسب على ما أتاه . وكانت هذه العقيدة أقدم ديانة ظهرت فى آسيا تقول بالحساب بعد البعث . ولم تكن دعوة زردست إلا سمواً بالعقائد القديمة التى كانت منتشرة بين أهله ورفعاً لألهتهم القديمة إلى المثل الأعلى . ولهذا أبقي زرادشت على احترام الآريين للنار وعبادتهم لها على أنها رمز ظاهر للخير والنور كما احتفظ أيضاً بفكرة الكهنة مشعلى النار .



شكل ٥٧ - أقدم معبد فارسى ، كما كان يوم تشييده
كشف الاستاذ هرتزفيلد Herzfeld عن بقايا هذا المعبد فى مدينة بازار جادة Pasargadae ويعتقد أن الملك قورش Cyrus هو الذى شيده ، ويقوم هذا المعبد على مقربة من قصر الملك وقبره فى تلك المنطقة (عن هرتزفيلد Herzfeld)

ولما لم يستطع زردشت أن يؤثر فى قومه بدعوته الجديدة هجر الميدين وذهب إلى الفرس يدعو إلى دينه الجديد ولعله لم يجد فى السنوات الأولى إلا القليل من الاستجابة إليه ، إذ تنضح له آماله وخاوفه فى تلك المجموعة الصغيرة من التراتيل

التي تركها ، وهي على الأرجح - كل ما وصل إلينا من أقوال ذلك النبي ، ونحن
نعرف شدة شغف الآريين بتربية الخيل ، ولهذا لاندعش عندما نقرأ أن زردشت
استطاع أخيراً أن يجعل أحد الملوك الأقوياء يؤمن به عندما شفى جواداً
كسيحاً كان الملك يعتز به . وقبل أن تحين ساعة هذا النبي كانت عقيدته الجديدة
قد لاقت نجاحاً جديداً وثبت قدمها ، ولم يحل عام ٥٠٠ ق . م حتى كانت الزردشتية
هي الديانة الأولى بين الإيرانيين ، كما قبلها أباطرة الفرس أيضاً . وليس من المستبعد
أن يكون الملك داراً شيد مقبرة هذا النبي . ولسنا نعرف من أقوال زردشت غير
التراتيل التي ذكرناها آنفاً وإلى جانبها بعض تعاليمه التي احتفظت بها بعض المؤلفات
التي جمعت في العهد المسيحي المبكر بعد وفاة هذا النبي بعدة قرون . ويجمع هذه
التراتيل كتاب الأستا (الابستاف) Avesta الذي يمكننا أن نسميه « إنجيل
الفرس » .

قيام الإمبراطورية الفارسية

لم يتحسس شعب من الشعوب لديانة زردشت كما فعلت مجموعة القبائل الإيرانية التي نسميها «الفرس». وقد آلت اليينا عن طريقهم معلوماتنا عن هذه الديانة. سقطت دولة العيلاميين على إثر غزو الآشوريين لها في منتصف القرن السابع قبل الميلاد فتعرضت عيلام للغزو الخارجي، وتمكن الفرس من احتلالها، وعند سقوط نينوى عام ٦١٢ ق. م. كان الفرس ينعمون بالاستقرار في المنطقة التي تقع في الطرف الجنوبي لجبال زجروس، وشمال الخليج الفارسي وشرقه مباشرة، وشواطئ هذه المنطقة لا تبعد كثيراً في طبيعتها عن حال المناطق الصحراوية بيد أن الوديان التي تتخلل الأراضي الجبلية البعيدة عن الساحل كانت ودياناً غنية خصبة. وفي هذه الوديان احتل الفرس منطقة تبلغ الأربعمئة ميل طولاً وكانوا أهل جبال أقوياء تغلب عليهم الفظاظلة ويحيون حياة زراعية مستقرة لا توجد فيها أية منظمات جذيرة بالاعتبار، ولم يكن لديهم فن أو كتابة أو أدب، ولكن أذهانهم كانت ملأى بذكريات ماضيهم، فبينما كانوا يقومون بحرث حقولهم أو رعى قطعانهم كانوا يقصون قصصاً يروون فيها أعمال أسلافهم وتقص تاريخ عقيبتهم القديمة التي كانوا يؤمنون بها.

وقبلوا أن يكونوا تحت ولاية أبناء عموماتهم الميديين الذين كانوا يسيطرون على البلاد الواقعة في شمالهم الغربي، ثم جاء الوقت الذي نظمت فيه إحدى القبائل الفارسية التي كانت تقطن جبال عيلام أمورها وأصبحت مملكة صغيرة اسمها «أنشان» Anshan وبعد أن مر ستون عاماً تقريباً على سقوط نينوى كان يحكم أنشان ملك فارسي يدعى قورش Cyrus، استطاع أن يجمع شمل القبائل الفارسية الأخرى في أمة واحدة. وهكذا ثار قورش على حكم الميديين. فجمع

جنوده الفلاحين واستطاع بعد ثلاث سنوات أن يهزم الملك الميدي وأن يجعل من نفسه سيداً للمناطق الميديّة بأسرها . وافتت أعمال قورش أنظار الغرب وأخذوا يرقبونه وقلوبهم ممتلئة بالاعجاب والخوف .

كانت الحيوية المتدفقة في هذا الفاتح الجديد لا ينضب لها معين . أما حيوية جنوده الفلاحين فقد كانت متدفقة طاغية لا يستطيع صدها أحد ، ويبدو أن الفلاحين الفرس كانوا رماة مهرة ، وكانت الغالبية العظمى في الجيش الفارسي من الرماة ، الذين كانت عاصفة سهامهم التي يطلقونها على العدو من مسافة كبيرة تغمر الأعداء قبل أن يلتحموا بهم ويقاتلهم يدّاً بيد . وبعد ذلك تتقدم فصائل الفرسان الفارسية المدربة ، التي كانت تبقى حول جانبي الجيش ، فإذا جاءت لحظة الهجوم هجموا وأكملوا القضاء على العدو ، وقد تعلم الفرس هذه التنظيمات من الآشوريين ، أعظم من عرفهم الشرق كجنود محاربين

وعقدت الدول العظمى ، بابل (كالديا) ومصر ، وليديا ، تحت حكم الملك كرويسس Croesus في غرب آسيا الصغرى ، وحتى إسبرطة في بلاد الأغرريق فيما بينها تحالفاً قوياً ضد هذا الخطر المفاجيء الذي ظهر وكأنه نور شهاب ثاقب في سماء الشرق . ولم يضيع قورش لحظة واحدة فباغت كرويسس بهجوم مفاجيء في ليديا ، لأنه كان صاحب الفكرة في إنشاء هذا الحلف ، ثم تابعت انتصارات الفرس فسقطت ساردس Sardes عاصمة ليديا عام ٥٤٦ ق.م ووقع كرويسس أسيراً بين يدي قورش . واستولى قورش أيضاً على الشواطئ الجنوبية في آسيا الصغرى . وهكذا امتدت سيادة المملكة الفارسية الصغيرة فأصبحت في مدى خمس سنوات صاحبة الصدارة في العالم الشرقي ، وأصبحت تحكم المنطقة من جبال عيلام حتى البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك آسيا الصغرى أيضاً .

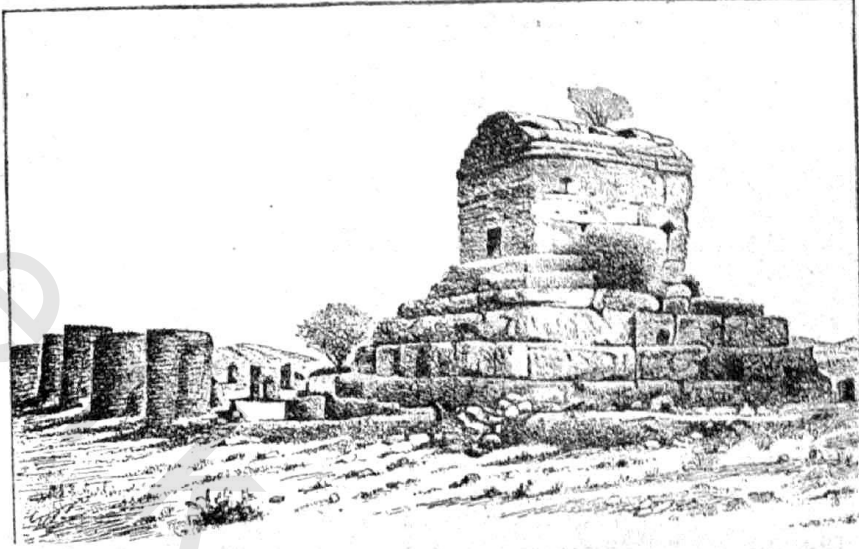
وعندما اتجه قورش شرقاً ، لم يجد عناء في هزيمة الجيش الكلداني الذي كان

يقوده إلى العهد الشاب ، بلشاصر ، Belshazzar ، الذى ورد اسمه فى سفر دانيال (الإصحاح السابع) وأصبح اسماً معروفاً لكل شخص فى العالم المسيحى . أما الأسوار الضخمة العالية التى أقامها نبوخذ نصر لحماية بابل فإنها لم تدفع عنها غائلة الهجوم . وسقطت المدينة عام ٥٣٨ ق.م . أمام هجمات الفرس دون مقاومة تذكر . وهكذا ، لم يمس على سقوط نينوى إلا أربعة وسبعون سنة فقط حتى نشب الصراع بين سكان الأراضى العشبية الشمالية وأهل الأراضى العشبية الجنوبية ، وانهار الشرق السامى تماماً أمام زحف القوى الهندو - أوربية .

وأسس قورش عاصمته وأقام قصره عند بازارجاده Pasargadae حيث تم الكشف عن بقايا قصر هذا الفاتح العظيم . فوجد على إحدى الصور البارزة التى عثر عليها الجزء الأسفل من صورة الملك ، وعلى طيات لباسه نرى نقشاً مكتوباً بالعلامات المسمارية نقرأ فيه الكلمات الآتية :

« قورش ، الملك العظيم » . وفى هذا المكان أيضاً أقام قورش معبداً للديانة التى نادى بها زرادشت الذى كان ما زال حياً فى أيام قورش وبعد مضى تسع سنوات على سقوط بابل ، خر قورش ، أول فاتح عظيم من الجنس الهندو - أوربى ، صريعاً فى ميدان الوغى (عام ٥٢٩ ق.م) أثناء قتاله مع البدو القاطنين فى شمال إيران ، ووضع جثمانه بما يليق به من احترام وإجلال فى مدينة بازارجاده فى قبر ضخم يؤثر فى نفس الناظر إليه ببساطة عمارته ، وقد رآه الإسكندر الأكبر فى ذلك المكان بعد انقضاء مائتى سنة .

صار غرب آسيا بأسره فى قبضة الملك الفارسمى . وفى عام ٥٢٥ ق.م . أى بعد أربع سنوات فقط على وفاة قورش غزا ابنه قمبىز أرض مصر ، وبعد انتصار الفرس على آخر دولة قوية فى الشرق ، أصبحت حدود الإمبراطورية الفارسية مشتملة على الشرق المتحضر كله من دلتا النيل حتى البحر الإيغى بما فى ذلك جميع البلاد



شكل : ٥٨ - مقبرة قورش فى بازار جاده
من المحتمل أن يكون قورش نفسه شيد هذه المقبرة على مقربة من معبد وقصره ،
وظل جثمانه فيها ما يقرب من مائتى سنة عندما جاء الاسكندر الاكبر فوجد الجثة
ملقاة على ارضية المكان بعد أن جردها السارقون مما كان عليها من حلى . وأمر
الاسكندر ، فوضعوا الجثة فى مكانها وأغلق باب حجرة الدفن ، ولكن النصوص
عادوا فنهبوها ، وهى الآن خالية من كل شئ (عن رسم بالريشة للمصور جورج
بلاومان - George T. Plowman)

التي حول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وامتدت من هذه الحدود
الغربية صوب الشرق حتى كادت تصل إلى الهند ، ولم يستغرق هذا العمل الضخم
سوى خمسة وعشرين سنة منذ اليوم الذى قهر فيه قورش جموع الميدين . وقد
كان للإمبراطورية الآشورية الفضل فى تمهيد الطريق لهذا العمل العظيم ، إذ أن
الفرس بدأوا يقتبسون الكثير عن سبقهم من الحضارات .

مضاة الإمبراطورية الفارسية

ورأى الفرس أن مدينة بابل كانت مدينة عظيمة فخمة وحولها أسوارها الضخمة التي أقامها نبوخذ نصر والتي كانت تمتد من النهر إلى النهر . كما شاهدوا مبانيه الهائلة التي يراها الناس من مسافة بعيدة في السهل البابلي . وكانت هذه المدينة المركز التجاري الأول في غرب آسيا وكانت أعظم سوق عرفه الشرق القديم . أما على ضفاف النيل فقد حكم الإباطرة الفرس المدن الرائعة التي تزخر بالآثار العظيمة التي تحدثنا عنها فيما سلف وكان لتلك الحياة المتحضرة التي رآها الفرس على ضفاف النيل وما رآوه أيضا على ضفاف الفرات أثر كبير عليهم لما سيتضح لنا .

وكانت اللغة الآرامية وهي اللغة التي كان يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملثون الأسواق البابلية ، قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره . وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق من البردى ، إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئا فشيئا . ولهذا رأى الموظفون الفرس أنهم مضطرون لتأدية أعمالهم الحكومية ، مثل جمع الضرائب باللغة الآرامية في جميع أنحاء النصف الغربي للإمبراطورية الفارسية ، وكانوا يبعثون برسائلهم الحكومية إلى بلاد النيل وغرب آسيا الصغرى باللغة الآرامية ، لأنها كانت اللغة العالمية في جميع الأعمال الخاصة بالتجارة والإدارة .

ولهذا كانت حكومة الملوك الفرس ، مثلها في ذلك مثل الإمبراطورية الآشورية حكومة ذات لغتين ، أي أنهم كانوا يستعملون لغتين هما الآرامية والفارسية القديمة واستخدم الفرس في كتاباتهم اللغة الفارسية حروفا آرامية ، كما يفعل اليوم من يكتبون الانجليزية بحروف لاتينية بيد أنه كان لهم إذ ذاك حروف هجائية مسمارية ربما أخذوا فكرتها عن الكتابة الآرامية .

ولقد دلت البحوث الأثرية الأخيرة عند إكياتانا عاصمة الميديين على أن الميديين ابتدعوا حروفا هجائية جديدة تبلغ تسعة وثلاثين علامة مسمارية ، وكانوا يستخدمون هذه الحروف في كتابة اللغة الفارسية على الرقم الفخارية . كما استخدموها أيضا كلما أرادوا أن يسجلوا حقائق تاريخية على المباني الحجرية . وهكذا بدأ الإيرانيون الذين ظلوا فترة طويلة دون علم الكتابة ، يسجلون حقائق ووثائق تاريخية لتخلد بعدهم على مر الدهور . وتعتبر هذه الآثار أقدم ما وصل إلينا من وثائق ميدية أو فارسية .

وترجع أهمية المدونات المسمارية الفارسية إلى أنها هي التي مكنتنا من حل رموز وقراءة النقوش المسمارية في غرب آسيا ، وذلك لأنه بعد أن احتلت الأرامية مكان لغة بابل وأشور جاء الوقت الذي لم يكتب فيه أحد من الناس أى رقم بالكتابة المسمارية ، وآخر ما وصل إلى أيدينا رقيم عليه عبارات كلدانية يرجع تاريخها إلى عام ٧ ق . م . أى أنه قد مضى نحو ألفى سنة على آخر شخص كان يستطيع

1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32	33	34	35	36	37	38	39	40	41	42	43	44	45	46	47	48	49	50	51	52	53	54	55	56	57	58	59	60	61	62	63	64	65	66	67	68	69	70	71	72	73	74	75	76	77	78	79	80	81	82	83	84	85	86	87	88	89	90	91	92	93	94	95	96	97	98	99	100
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

ا

1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32	33	34	35	36	37	38	39	40	41	42	43	44	45	46	47	48	49	50	51	52	53	54	55	56	57	58	59	60	61	62	63	64	65	66	67	68	69	70	71	72	73	74	75	76	77	78	79	80	81	82	83	84	85	86	87	88	89	90	91	92	93	94	95	96	97	98	99	100
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

ب

شكل : ٥٩ — النقشان الفارسيان القديمان اللذان كانا أول النقوش التي حلت رموزها وقرئت

قراءتها ، وهكذا ظل تاريخ بابل وأشور مدفوناً تحت أنقاض المدن التي قامت على ضفاف دجلة والفرات .

كانت الكتابة المسمارية الفارسية مكونة من تسعة وثلاثين حرفاً هجائياً ولهذا لم تكن صعبة . وقد تمكن جروتفند Grotefond وهو مدرس ألماني ، في أوائل القرن الثامن عشر أن يتعرف على أهم دارا واكرزكس وبعض الألفاظ الفارسية الأخرى . ثم استطاع عدة باحثين أوروبيين آخرين أن يتوصلوا إلى معرفة أصوات أكثر الحروف الهجائية المسمارية في اللغة الفارسية ، وأتم السير هنري رولتسون وهو ضابط بريطاني حل رموز الكتابة المسمارية الفارسية في عام ١٨٤٧ وأصبح العلماء منذ ذلك التاريخ يستطيعون قراءة النقوش التي كتبت باللغة الفارسية القديمة ، ولكن عدد هذه النقوش كان ضئيلاً إذ ذاك وكانت الأهمية الكبرى لقراءة هذه النقوش الفارسية هي أنها ربما كانت وسيلة تساعدنا على معرفة قراءة الكتابة المسمارية البابلية .

فقد لاحظ الباحثون منذ أمد بعيد أن النقش الثالث في أثر بهستون Behistun العظيم للملك داريوس قد كتب بنفس الحروف المسمارية التي توجد على كثير من الرقم الفخارية وعلى بعض الآثار التي عثر عليها في بابل فاعتقد الباحثون أنه إذا أمكننا قراءة النقش الثالث في بهستون ، يصبح في استطاعتنا قراءة الوثائق البابلية والآشورية القديمة ونجح راولتسون بعد ثلاث سنوات قضائها في دراسة نقوش بهستون من أن يحل رموز بعض الكتابة البابلية أيضاً المكتوبة بالطريقة المسمارية وعند ذاك بدأت أطلال المدن البابلية وخرائب الدور الآشورية تفصح عما خبأته من أخبار ، وتخبرنا رويدا رويدا عن العصور الثلاثة العظيمة في تاريخ بلاد الدجلة والفرات . وهي فترة تزيد على ألفين وخمسمائة عام من تاريخ الإنسان في غرب آسيا ، كان العالم يحفلها جهلاً مطبقاً .

ويرجع الفضل في قدرتنا على قراءة المدونات المسماة ومعرفة هذه المعلومات الجديدة إلى الوثائق التي خلفها لنا ملوك الفرس .

وكان تنظيم هذه الإمبراطورية الشاسعة ، التي تمتد من نهر الهند حتى البحر الإيحي (تقرب من طول الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب) ، ومن المحيط الهندي حتى صحراء بحر الخرز ، عملا جبارا ، كانت هذه الإمبراطورية تتطلب مجهودا في التنظيم على نطاق واسع ، أعظم من أي نوع من التنظيم حاول أي حاكم آخر أن يفعله من قبل . كان هذا العمل أكبر من أن يتم كله على يدي قورش الذي بدأه ثم أمته دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) الذي سيظل التنظيم الذي وضعه عملا من الأعمال الخالدة المجيدة في تاريخ الشرق بل في تاريخ العالم كله .

كان حكم دارا حكما عادلا رحما مستنيرا ، ولكنه لم يكن لرعاياه من الشعوب أي صوت في الحكومة ، وكان العاهل الفارسي يلقب بالملك الأكبر منذ أيام قورش ، وكان كل ما يقرره الملك الأكبر يصبح قانونا وعلى الشعوب أن تنحني أمام كاهنه ، ويقول دارا في نقش بهستون « لقد انصاحت هذه البلاد لأوامري والحمد لأهورا مزدا ، وكل ما أمرتهم بعمله كانوا ينفذونه » ، ونلاحظ هنا حقيقة هامة نستشفها من هذا النص ألا وهي أن هذا النظام لم يكن محاولة للحكم على نطاق أعظم مما عرفه العالم حتى ذلك الوقت فحسب ، بل كان حكومة في قبضة رجل واحد . ولم ينس العالم القديم المثال الذي وضعته الإمبراطورية الفارسية الشاسعة التي حكمها فرد واحد .

وفي سبيل إتمام هذا التنظيم العظيم عمل دارا على أن يولي نفسه ملكا فعليا على كل من مصر وبابل ، ثم قسم باقي الإمبراطورية إلى عشرين ولاية ، وكانت كل

ولاية من هذه الولايات تعرف باسم « ساتريه » Satrapy لأن كلا منها كان تحت إمرة وال أو حاكم يدعى ساتراب Satrap يعينه الملك الأعظم . وأنه وإن كانت هذه التنظيمات شبيهة بما كان متبعاً في امبراطوريات الكلدانيين وآشور ومصر إلا أنها تعد خطوة تقدمية في نظام حكم الولايات تحت إمرة الحكام . وفي الواقع كانت الإمبراطورية الفارسية بنظامها الجديد ، المثال الأول في التاريخ على مجموعة من الشعوب الخاضعة التي تحكم كأقاليم ، ويمكن أن نطلق على هذا النظام « أنه نظام إقليمي » ، وتمتعت الأمم الخاضعة أو بالأحرى الأقاليم الواقعة تحت الحكم الفارسي بقسط كبير من الاستقلال في إدارة شؤونها المحلية طالما كانت تقدم للملك الأكبر الجزية المفروضة عليها . وطالما كانت ترسل لجيشه جنوداً ، ولقد عول الملك الأكبر في سبيل الوقوف على أسرار أى ثورة محلية ومنعها ، كثورة حاكم أو شعب ضد الحكم الفارسي ، على تعيين موظفين يقيمون في كل دولة من الدول التابعة له . وكان يطلق على هؤلاء وفقاً لعادة مصرية قديمة : « آذان الملك أو عيونه » ، وكانت مهمتهم تنحصر في إبلاغ الملك أية قرينة على العصيان ، وكانت كل هذه التنظيمات تحسينات أدخلها الملك الأكبر على نظام الحكم في الإمبراطورية الآشورية .

كانت الأراضي الزراعية مقسمة إلى إقطاعات شاسعة في حوزة نبلاء أقوياء ، أو بعض ملاك الأراضي الأغنياء ، فلم يكن هناك إلا عدد ضئيل من الزراع الذين يملكون أراضيهم ، وكانوا جميعاً يدفعون ما عليهم ، لتقدم مع الجزية التي كانت مفروضة على جميع أنحاء الإمبراطورية وكانت هذه الجزية تجبي عينا في المنطقة الشرقية من الإمبراطورية وذلك وفقاً للتقاليد القديم .

أما في المنطقة الغربية من الإمبراطورية ولاسيما ليديا والمستعمرات الإفريقية في غربى آسيا الصغرى حيث كانت العملة المعدنية معروفة منذ عام ٦٠٠ ق . م .

فإن الجزية كانت تدفع بالعملة . أما الأقطار الشرقية ، مصر وبابل ، وبلاد الفرس نفسها فلم تكن بعد قد اقتبست هذه الطريقة ، وعلى أية حال فقد شرع دارا في سك عملة ذهبية كما سمح لولائه أن يسكوا عملة فضية . وكانت النسبة ١٣ : ٢ . أى أن الذهب كان يعادل ثلاث عشرة مرة قيمة الفضة وكان للعملة المسكوكة فضل كبير في تيسير التبادل التجارى بين الأمم ولهذا أصبح استعمالها عاما وأكثرت انتشارا في الشرق الأدنى خلال العهد الفارسي .

ويمكننا أن نقول بوجه عام أن دارا مثله في ذلك كمثل اليا بانين في العصر الحديث أظهر مهارة فائقة في اقتباس خير ما في الحضارات العظيمة التي تحيط به لكي يطبقها في حكومته ، فلقد أدرك سريعا الخير الذي يعود من استخدام التقويم المصري الذي يقسم السنة إلى اثني عشر شهرا كل منها ثلاثون يوما ، فأمر باقتباس هذا التقويم في الحكومة الفارسية ، وأعجب دارا إعجابا شديدا بما وصل إليه المصريون في الطب . فأمر بإعادة أحد رؤساء الكهنة الذي كان على جانب عظيم من المعرفة ، وكان أسيرا في بلاد الفرس فأعذر إليه تعاليمه ليذهب إلى صالحجر ، وهي مدينة تقع في غربي الدلتا ، وأن يعيد بناء مدرسة طبية مصرية كانت قد تهدمت مبانيها ونحن نقرأ تلك القصة على قاعدة تمثال لهذا الكاهن الكبير في مجموعة متحف الفاتيكان بروما ونعرف منها كيف نفذ هذا الكاهن أوامر دارا وأعاد بناء بناء المدرسة . وكانت إحدى الدارين تختص بالمدرسة نفسها ، أما الأخرى فيرجح أنها كانت المكتبة . وجمع لها الطلبة من أرقى العائلات ليدرسوا فيها ، وهما بما يلزمها من الآلات ، التي كانت تستخدم على الأرجح في العمليات الجراحية . وبسترد النقش قائلا : لقد فعل صاحب الجلالة (أى دارا) ذلك لإدراكه قيمة هذا الفن (الطب) أينقاذ حياة كل من أصابه السقم . وهكذا أسس هذا العاهل الفارسي الكبير أقدم مدرسة طبية كمؤسسة ملكية .



شكل : ٦٠ - جنود من الفرس

بالرغم من أن هؤلاء الجنود كانوا يحملون الحراب عند تأديتهم عملهم كحرس في القصر ، إلا أنهم كانوا من الرماة كما نرى من كثافة السهام المعلقة فوق ظهورهم والقوس المعلق على الكتف اليسرى . وكان من عادة جنود الفرس أن يشرعوا حرا بهم وهم ملتفون حول الملك في ساحة القتال ، تأمل الملابس الفخمة التي يلبسها حراس القصر .

هذا الرسم مأخوذ من أصل زاهي الألوان على قوالب مزججة وهو فن اشتهر به الفرس عن الاشوريين واستخدموه في تجميل جدران القصور .

وفي عهد دارا . أيضا قام عالم الفلك السكستاني « نبوريمانو » Naburimannu بأبحاثه الفلكية في بابل ، كما أن هناك دراسات أخرى من هذا النوع قام بها « كيدنو » Kidinnu في عهد الحكم الفارسي أيضا .

وليس أدل على حكمة دارا إلا كبر السياسية من حرصه على أن يجعل من بلاد الفرس دولة ذات قوة بحرية عظيمة ، ولم يكن يسيرا على أمة تقطن قلب

اليابسة ومكونة من جماعات من الرعاة والفلاحين ، وتفصلها عن الماء شواطئ صحراوية أن تسيطر على البحر وتسوده ، واضطر دارا إلى استخدام فلاحين من الأجانب ، ومن أعماله أنه بعث بملاح ماهر من ملاحى البحر الأبيض المتوسط يدعى « سكيلا كس » Scylax ليكتشف نهر السند فى الهند . ثم أمره دارا بعد ذلك أن يبحر إزاء شواطئ آسيا من مصب نهر السند متجها صوب الغرب حتى خليج السويس . فكان سكيلا كس أول بحار غربي عرفناه أبحر بإزاء هذا الشاطئ الجنوبي لآسيا ، ذلك الشاطئ الذى كاذ أن يكون مجهولا لدى الشعوب الغربية وكان ذلك حوالى عام ٥٠٠ ق . م .

وفى السويس أعاد دارا حفر القناة المصرية القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر ، وكانت قد ماتت بالطمى والرمال منذ زمن غير يسير . وقد عثر على قطع متناثرة للوحات حجرية كبيرة ، وكان دارا قد أقامها على طول الطريق القديم لهذه القناة . وتحمل هذه اللوحات نصا يتحدث عن إعادة حفر هذه القناة . وهذه هى بعض كلمات « الملك العظيم » « أمرت بحفر هذه القناة من مجرى الماء الذى يوجد فى مصر والمعروف باسم النيل حتى البحر (البحر الأحمر) الذى يمتد من بلاد الفرس ، ثم حفر هذه القناة كما أردت ، وأبحرت السفن من مصر إلى بلاد الفرس عن طريق هذه القناة ، وذلك وفقا لمشيئتي » . ومن الواضح أن دارا كان يراوده أمل أثبتت الأحداث نجاحه وهو جعل الشاطئ الجنوبي لبلاد الفرس يساهم فى النشاط التجارى المطرد بين الهند وعالم البحر الأبيض المتوسط .

فكما كانت بلاد الفرس فقيرة فى صغار الملاك للأراضى كانت تفتقر أيضا إلى النجار الصغار الطموحين الذين ربما ظهر منهم مغامرون ينهضون بشؤون التجارة .

وأحسن دارا معاملة المدن الفينيقية ، ولم يفعل ما فعله الآشوريون ونجح في إعداد أسطول حربي فينيقي ضخم . وسوف نرى أن ابن دارا الكوركس Xerxus (خشيارشا) استطاع أن يعتمد على المئات من السفن للأعمال الحربية وللنقل في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وعندما دعت الحاجة إلى استخدامها في غزو أوروبا . وهكذا حقق الملوك الفرس المستثمرون ما لم يحققه الأباطرة الآشوريون وأصبحت فارس أعظم قوة بحرية في آسيا .

وحافظ الأباطرة الفرس على طرق المواصلات بشقهم طرقا صالحة تمتد في جميع أنحاء الإمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها ولعل هذه الطرق أسدت للإمبراطورية الفارسية ما تسديه لنا الآن السكك الحديدية ولكن على نطاق ضيق بالطبع .

وكان للرسل الملكيين نظام بريدي أدق وأسرع مما كان متبعاً في الإمبراطورية الآشورية ، وكان هؤلاء الرسل يمتازون بسرعة مدهشة ، ولكن نقل البضائع كان يحتاج إلى وقت أطول فمثلاً من سوسا Susa أو پرسپولس Persepolis إلى البحر الإيحي كان يتطلب من الوقت ما يعادل ما نحتاجه الآن لنطوف حول العالم وما يدل على فائدة تلك الطرق انتشار ذلك النوع من القوت الذي ينمو في البيت ألا وهو الدجاج . فقد كانت في الأصل دجاجة برية تعيش بين الأدغال في الهند ثم استأنسها الهنود الشرقيون ولم تصبح منتشرة في منطقة البحر الأبيض المتوسط حتى جاءت بها وسائل المواصلات الفارسية من الهند إلى البحر الإيحي .

كانت مدينة سوسا العيلامية القديمة التي تقع في جبال زجروس هي العاصمة وفيها كان يقطن الملوك ، بيد أن هواء بابل المعتدل اجتذب العاهل الفارسي أثناء الشهور الباردة في السنة فكان يرحل إلى قصور الإمبراطورية الكلدانية البائدة ليقيم بها . وقد حرص ملوك الفرس الأوائل على أن يقيموا في وطنهم الفارسي

القديم ، رغم بعده ولقد رأينا أن قورش قد أقام قصرأ فخماً عند بارازجاده على مقربة من المكان الذى هزم فيه الميديون وأن دارا قد بنى أيضاً قصرأ رائعاً عند برسبولس التى تبعد نحو الأربعين ميلاً جنوب قصر قورش . وبالقرب من أطلال برسبولس توجد مقابر دارا والكسركسيس وغيرهم من الأباطرة المتأخرين . لأنهم كانوا حربصين على أن يدفنوا فى موطنهم الأصلي فى فارس .

وأخذ البنائون الفرس يتعلمون فن المعمار من الشعوب الشرقية القديمة التى أصبحت خاضعة لإمبراطوريتهم . فاقبسوا المدرجات الهائلة التى كانت تقوم عليها القصور الفارسية عن البابليين . كما اقتبسوا الثيران المجنحة التى تقوم أمام أبواب القصر والسلام المؤدية إليها عن آشور . أما بواكى الأعمدة التى تمتد أمام القصور وتملأ أبهامها والتى كانت أقدم ردهات ذات أعمدة بنيت فى آسيا - فإنهم اقتبسوها من مصر إذ كانت تقوم على ضفاف النيل منذ أكثر من ألفين من السنين قبل ذلك التاريخ ^(١) وكذلك جدران القصور الزاهية الألوان والتى بنيت من طوب مزجج فإنها جاءت إلى بلاد الفرس من الغرب . وهكذا اندجت الحضارات العظيمة التى حكمها الأباطرة الفرس فى حياة إمبراطوريتهم .

وأدى اندماج تلك الحضارات القديمة التى نشأت فى الشرق الأدنى تحت نظام شامل إلى إيجاد حالة جديدة لها خطرهما الكبير فى تاريخ أوروبا فقد رأينا قورش وكيف وصلت انتصاراته إلى شواطئ البحر الإيغى ورأينا المدن الإغريقية التى تقع فى غربى آسيا الصغرى وقد أصبحت تحت الحكم الفارسى . وهكذا امتدت تلك الإمبراطورية العظيمة على طول جنوبى أوروبا . وإذا تأملنا خريطة للعالم ووضعنا فى أذهاننا أن تقدم الإمبراطورية نحو الغرب قد امتد فى النهاية تحت حكم دارا

١ - مما يلفت النظر أن الفرس لم ينقلوا العقد فى البناء عن البابليين . فإن جميع الابواب فى قصر دارا تعلوها قطعة حجرية أفقية هى ما تسمىها « العتب » وقد نقلوا ذلك من الابواب المصرية

فشمل الأراضي الاوربية حتى نهر الدانوب ، فإننا ندرك أن وقوع اصطدام حربي بين الإمبراطورية الفارسية وبين بلاد الأغريق أصبح أمراً لا مفر منه . وسيكون لهذا الموقف فيما بعد أثر أعظم ، عندما يؤدي إلى اندماج أشد قوة بين حضارات الشرق الأدنى وبين الحياة في أوروبا الغربية منها إلى درجة لم تكن ميسورة من قبل . ولم تكن تلك الحروب بين بلاد الفرس وأوروبا ذات أهمية كبرى بالنسبة لبلاد الفرس ، ولكنها كانت العامل الاساسي في تطور تاريخ بعض الامم الصغيرة مثل الاغريق .



شكل : ٦١ - مقابر ملوك الفرس الاوائل على مقربة من مدينة برسيوليس (تخت جمشيد)

بعد موت كوروش وابنه قمبيز ، بدأ ملوك الفرس منذ عهد دارا الاول في نحت مقابرهم في واجهة هذا الصخر على مسافة يسيرة من مدينة برسيوليس . وهنا مقابر دار الاعظم واكرسيس ودارا الثاني وارتا كسرسيس الثاني وارتا كسرسيس الثالث ودارا الثالث وكلها منحوتة في الجبل خلف قصور برسيوليس ، ولو أضفنا عليها مقبرة كوروش (شكل ٥٨) يصبح لدينا مقابر جميع الملوك الفرس التسعة ماعدا قمبيز الذي غزا مصر فان قبره لم يعثر عليه حتى الآن . وامام كل مقبرة بضع اعمدة يفتح وسطها الباب . وفوق الاعمدة نرى مربعا منحوتا في الصخر فيه رسم الملك يتعبد للاله اهورامزدا امام مذبح للنار وقد فتحت هذه المقابر وسرقت محتوياتها كما حدث لمقبرة كوروش وجميع هذه المقابر لا تحوى شيئا الا اللهم الا النوابيت الحجرية الضخمة الموضوعة في أماكن معدة لها في الجدران . تلك النوابيت التي دفن فيها دارا واكرسيس وغيرهم من الملوك وعائلاتهم .

كان الحكم الفارسي بالنسبة للعالم الشرقي على وجه العموم فترة رخاء وسلم استمرت نحو قرنين من الزمان (انتهت حوالى ٣٣٠ ق.م). ومع تقدم الزمن لم يعد ملوك الفرس فى قوة قورش أو دارا أو مهارت هما ، فقد أحبوا الترف وركنوا إلى الدعة وألقوا كثيراً من مهام الحكم على عاتق ولائهم وموظفيهم ، وترتب على ذلك أن أصبحت الحكومة فى حالة فساد وعجز ، وكان مصيرها إلى الضعف والاضمحلال .

وكتب المتأخرون وخاصة الاغريق عن الحكم الفرس وصوروهم لنا كطغاة شرقيين قساة القلوب غير متحضرين ولكن هذا الوصف مليء بالتحامل وخاصة إذا تحدثنا عن الحكم الفرس الأولين . فلقد شعر بعض هؤلاء الأباطرة الفرس شعوراً عميقاً بواجبهم فى أن يهينوا حكومة عادلة لأمم الأرض . فيقول دارا الأكبر فى نقش بهستون : ولهذا مد أهورا مزدا يد المساعدة لى ... لأنى لم أكن شريراً ، ولم أكن كذوباً ولم أكن طاغية ، وما كان أحد من أجدادى هكذا . لقد حكمت طبقاً لقواعد العدل ، ..

ولا ريب فى أن الامبراطورية الفارسية . أعظم امبراطورية شهدتها العالم القديم تمتعت بحكومة عادلة رحيمة لم تعد لها أى حكومة سبقتها فى بلاد الشرق . وتدل كثير من هذه التصريحات مثل تلك التى وردت فى نقش دارا وأشرنا إليها منذ لحظة على أن الحكم الفرس كانوا أتباعاً مخلصين لتعاليم زردشت . وقد ساعدتهم قوتهم على نشر هذه العقيدة النبيلة فى جميع أنحاء غربى آسيا الصغرى .

وهنا ظهر متراس ، الذى كان زردشت ينظر إليه على أنه أحد أعوان أهورا مزدا ظهر على أنه بطل النور ، وفى آخر الأمر إلهاً للشمس ، وطغى اسمه على اسم أهورا مزدا شيئاً فشيئاً . وانتقل متراس من آسيا الصغرى إلى أوروبا ، وزاد انتشار عبادته فيما بعد فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وأصبحت بعد ذلك منافساً خطيراً

للديانة المسيحية لأنه فيما يتعلق بالديانات ، وبالنسبة لكثير من الأمور الأخرى أتمت الامبراطورية الفارسية تحطيم الحدود الدولية ، وكان ظهورها بداية فترة طويلة من الزمن تنافست فيه الديانات الرئيسية في الشرق لنيل مركز الصدارة بين جميع الأمم .

كانت بلاد الفرس آخر قوة عظيمة عرفها الشرق الأدنى القديم . وقد آن الألوان لنوجه أنظارنا صوب الغرب لنشهد تقدم الحضارة في بلاد أوربا ، ولكن لنقف هنيهة لتذكر ما حققته الشعوب الشرقية القديمة . لقد اخترع الشرق الأدنى لأول مرة في التاريخ مجموعة كاملة من المخترعات التي لم تتفوق عليها مخترعات أخرى سوى مخترعات العالم الحديث . كانت الشعوب الشرقية أول من ابتدع الفن والهندسة والأدب والعلوم . وكان لدى الشرقيين أقدم القوانين المكتوبة وتمت بينهم أقدم عقيدة نادت بوحدانية الله ورعايته الأبوية لجميع البشر .

وإلى جانب ذلك فقد قبل الشرق دائماً فكرة الملكية كأمر طبيعي ولم يخطر في ذهن أحد أن يؤخذ رأي الناس في الطريقة التي يحكمون بها . ولم يعرف الناس ما نسميه الآن الحرية كما نفهمها في عصرنا الحالى ، ولم يحلم أحد بالنظام الذى يجعل الناس أصحاب الكلمة فى حكم أنفسهم وهو ما نسميه بالديموقراطية .

وكما قبل الشرقيون حكم الملوك بدون مناقشة فأنهم آمنوا بحكم الآلهة . فاعتقدوا أن أى عاصفة تثار تسبب فيها إله من الآلهة وأن كل كسوف للشمس كان من عمل إله غاضب أو روح شريرة ولم يهتم الشرقيون كثيراً ليعرفوا الأسباب لحدوث هذه الظواهر ولهذا لم تتقدم بينهم العلوم الطبيعية تقدماً ذا شأن ، أما الديانة فشوهتها الخرافات وحرمت الفن والأدب من بعض مصادرها الأساسية اللازمة للتطور والالهام .

وهكذا ما زال أمام الناس أشياء كثيرة لا حصر لها ، وكان عليهم ان يصلوا اليها ، وذلك فى إدارة الحكومة وفى التفكير فى دنيا الطبيعة ، وفى إدراك ما فى الطبيعة من غرائب وجمال ، وفى التعمق فى الفن والأدب وفى غيرهما من الميادين . وقدّر لهذا التقدم أن يتم مستقبلا فى أوربا ، التى تركناها عند حديثنا عن العصر النيوليتى فى آخر الفصل الثانى .

ويجب علينا أن نتبع الآن سير الحضارة وهى تنتقل من الشرق الأدنى القديم مارة بشرقى البحر الأبيض المتوسط لتصل إلى سكلن أوربا ، وذلك منذ أربعة آلاف وخمسة آلاف سنة .

« انتهى »